بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مقدمة

فى هذا اليوم (*) فاتحة العام الهجرى الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية فى دورها الحاسم ؛ نبدأ فى نشر دراساتٍ متتابعةً فى حياة خاتم المرسلين محمد ﷺ على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة .

كانت هذه أمنيّتى منذ سنين ، ولكنى كنت أرجىء تحقيقها ، لا إيثاراً لغيرها عليها ، ولكن لما كنت أشعر به من المشقة العظيمة فى تَوْفِيَتها حقّها من الناحيتين العلمية والفلسفية على ما ينبغى أن تكون عليه فى بيئة أصبحت مطامعها العلمية لا تقف عند حدّ . فالناس اليوم – وخاصة متعلميهم – لا يقنعهم سرد الحوادث التاريخية دون معرفة عِلَلها الأوّلية ، سواء أكانت من طبيعة البيئة ، أم من مقتضيات الاجتماع ، أم من مستلزمات العاطفة الدينية التى جُبلت عليها النفوس البشرية . ولا يكفيهم سَرْد أطوار النبوّة وحالاتها دون معرفة ماهيّة النبوة فى ذاتها ، وهل هى حاجة من حاجات الروح الإنسانية كما يقول الدينيون ، أم هى مجرد ظواهر اجتماعية ، تولدها ضرورات الاجتماع ، وتستدعيها أمانى النفوس ، مثلها كمثل جميع الظواهر التى تتولد فى أدوار التطورات الأدبية للأمم ثم تزول وتحلّ محلّها ظواهر أخرى أكثر مناسبة ، وأوثق صلة بضروب الثقافات التى تتعاقب على الجماعات فى مراحل حياتها العقلية ؟

والمَيْل إلى تأييد أحد هذين التيارين الفكريين يستدعى إقامة الأدلة القاطعة

(*) أول المحرم سنة ١٣٥٨ هـ .

عليه ، ولا يمكن أن يؤخذ كقضية مسلَّمة ، وخاصة فى هذا الدور من تنازع المذاهب الفلسفية .

ثم إن الكلام عن الوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحانية بالملأ الأعلى ، وإمكان استمداد العلم عن العالم العُلْوىّ مباشرة بواسطة المَلَك ، خلافاً للسُّنَّة المعروفة بين البشر ، كل هذا لا يتأتى للعقل الراهن أن يُسَلِّمه بغير أدلة تناسب خطورته الاعتقادية ، فالتزام كتابة السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة يوجب إيراد هذه الأدلّة ، ويوجب أن تكون من القوة ، وصحة الدلالة ، بحيث تصلح أن تثلج عليها الصدور ، وتطمئن إليها العقول ، لا أن تكون مسلَّمات تحكُّميَّةً فى صورة أدلة علمية .

لا أنكر أن هذا كله من أشق الأعمال الكتابية ، وأن المتكلِّف له بسبيل فتح طرائق جديدة للتدليل على أمور روحية يعتبرها أكثر الناس أجنبية عن المحاولات العلمية .

وليست تنحصر صعوبة هذا البحث فى هذه الناحية الروحية ، ولكنها تمتد إلى نواح أخرى علمية باحتة يصعب تعليلها بالأسباب المادية على مقتضى الدستور العلمى ، وسنضطر إلى تلمّس علل لها من عالم ما فوق الطبيعة ، وهذا موضوع نزاع سيكون بيننا وبين العلم الاجتماعى نفسه ، لأنه لا يعترف بذلك العالم العلْوى ، ويهون عليه أن يتلمس للحوادث عِلَلاً واهية أو يتركها بدون تعليل تحاشيا من نسبتها إلى علل غير طبيعية . مثال ذلك قيام محمد ﷺ وحده بدعوةأمة برُمَّتها إلى ترك دين توارثته عن أسلافها أجيالاً كثيرة ، والأخذ بدين مناقض له فى جملته وتفصيله ، ونجاحه فيما تصدى له نجاحاً محيّراً للعقل لم يسبق له شبيه فى تاريخ النفسية الإنسانية . فالباحث العلمى يجد نفسه إزاء هذا الحادث الجلل مضطرا لأن يتلمس له العلل الطبيعية ، فيدعى أن الأمة العربية قبيل البعثة المحمدية كانت تتطلب دينا جديدا ، وتتطلع إلى تأليف كتلة اجتماعية تجتمع فيها كلمتها ، وتتوحد وجهتها ، وتتعين بها غايتها ، فلما ظهر محمد ودعا إلى الدين الجديد والاجتماع عليه ، تسارع العرب إلى تلبية ندائه ، فقام الإسلام وقامت جماعته ، وتمّ لها ما تمّ من الفتوحات الضخمة ، والمدنية الفخمة ، ثم اعترى هذه الوحدة التراخى ، وانتهى حال المسلمين إلى ما انتهى إليه اليوم !

يَدَّعِى الباحثُ العلمىّ هذه الدعوى تخلصاً من ورطات الحيرة ، متعمّداً فى هذه السبيل الاستناد إلى علل باطلة ، يعلم هو قبل غيره عراقتها فى البطلان . فإن الأمة العربية لم تكن قبيل البعثة المحمدية تتطلب ديناً جديداً ، وكيف يعقل ذلك وقد رفضت دعوة النبى رفضاً باتّاً وعدّته كاذبا ، وعجبت من جَرْأتِه على الزراية بآلهتها ، واعتبرت التوحيد فِرْية لم يقل بها أحد غيره ، فقالوا كما ذكره اللهُ عنهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ (١) . فأمّةٌ تقول مثل هذا القول ، وتُنابِذ الداعى إلى الدين الحق ، وتتقصده بالقتل حتى يختفى ويخرج من بلده فى جنح الظلام ، ويعتصم إلى غارٍ تفاديا من الطلب الذى أُرسل وراءه ، كل هذا منها لا يدل على أنها كانت تتلمس دينا جديداً أصلح من دينها الأول . وإنى أسأل القائلين بهذا القول : أى أمة فى الأرض من أهل القرون الماضية طلبت أن تتبدل دينا جديدا بدينها الذى ورثته عن آبائها ، وسعت إلى ذلك سَعْيَه ، فتمّ لها ما أرادت أو كادت ؟ ليس فى تاريخ البشر كله ما يدل على هذا . وفى الأرض اليوم أمم لو انتقد الباحث أديانها لعجب كيف يُسبغ قوم لهم عقول أن يدينوا بها فى عصر بلغ فيه العلم إلى حد التحدث فى الصعود إلى القمر ، ولم يكفهم المنظار الفلكى ولا آلة تحليل الأشعة المنعكسة منه لمعرفة تركيبه المادى ؟

أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تتهيأ لجمع شتيتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبى ﷺ ، فهى دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإنّ أمّةً تدبّ فيها هذه الروح ولا تُؤْثَر عنها كلمة فيها أو بيت من الشعر أو أية حركة تنمّ عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاؤا أن يختلقوه ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفى أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير إليه . وما حفز أصحاب التعليل إلى

---

(١) سورة ص : الآيات (٤ – ٧) .

هذه الاختلافات إلا حيرتهم فى تعليل حدوث انقلاب خطير كالذى حدث على يدى النبى ﷺ طفرة ، بدون أسباب مادية مهدت له آمادا طويلة .

ومما نسوقه من قبيل الإطراف فى هذا الباب أن الأستاذ مونتيه ، المدرس بجامعة جنيف ومترجم القرآن الكريم ، قدم لترجمته بمقدمة قال فيها : إن هذا الكتاب يحوى كثيرا من الأصول القيمة ، والتعاليم الصالحة ، وعبارته فى أعلى درجات البلاغة ، فلا يعقل أن يكون محمد والحالة هذه أُمّياً ، لأن الأمىّ لا يستطيع بحال من الأحوال أن يأتى بمثل هذا العمل الأدبى الضخم !

فانظر كيف يتعسف الأستاذ مونتيه فى حكمه ، وينسب الكذب لأعظم رجل أنجبته الأسرة الآدمية ، ويعزو الغفلة لأمة برمتها ، لمجرد أن الكتاب الذى هو بسبيل الكلام عليه لا يمكن صدوره من أمى ! ذلك لرسوخه فى عقيدته من أن العلم والحكمة لا مصدر لهما إلا العقل البشرى ، وأنهما لا يمكن أن يأتيا من طريق الروح ، لأن الروح عنده لا وجود لها ، والعالم الروحانى خيال بحت . ثم هو لا يريد أن يدع أمر صدور هذا الكتاب من رجل أمى أعجوبة خارقة للعادة ، يجب أن نتلمس أسبابها الحقيقية ، فرمى القول على عواهنه وعَلَّله على النحو الذى رأيت !

وأرانى من ناحية مضطرا لأن أقول : إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية ، والأفانين البيانية ، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة على التشكك والتثبت ، فأسرفوا فى إهمال الناحية الإقناعية ، وتهافتوا على الناحية التسليمية ، فجرهم هذا الموقف إلى قبول كل ما وضعه الخرَّاصون من المبالغات التى ضاهَأُوا بها ما ورد من أمثالها عن الأمم المختلفة ، مُعَاصِين بذلك كل ما ورد فى الكتاب من وجوب مجانبة الغلوّ فى القول ، وضرورة التثبت فى النقل ، والتمحيص فى الرواية ، فجاءت السيرة المحمدية زاخرة بالأقاصيص الخرافية ، والروايات الموضوعة ، والأشعار المصنوعة . فإن تكن هذه الكتب المؤلفة فى السيرة المحمدية قد راجت لدى العامة ومن يجرى مجراهم ، فقد أهملها الخاصة ، وكان يجب أن تكون أول ما تتجه إليه عقولهم ، وتهوى إليه أفئدتهم . وقد تناول التأليف فى السيرة فى العهد الأخير رجال من أهل الثقافة الحديثة ، فوفوا بحاجات

فى نفوس الناس ، وبقيت حاجات أخرى لا تزال غير مُوَفَّاة ، بل بقيت نواح لفتت العلومُ الراهنة الأنظارَ إليها ، ولم يطرقها قلم كاتب إلى اليوم ، ولا يجوز أن تكون سيرة النبى ﷺ على هذا النحو من النقص ، وخاصة فى هذا العهد الذى بلغت الشكوك فيه أبعد مدى يمكن أن تصل إليه ، ووصل الاستخفاف فيه بأمر النبّوات إلى حدٍّ لم يبلغه حتى فى أظلم عهود الجاهلية .

لقد أصبح القول الفصل اليوم للعلم ، العلم الذى اتفق قادة الفكر الإنسانى على تسميته بهذا الاسم ، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سُرِّيت عليه أصول الدستور العلمى ، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشى أسلوبه ، ويترسم حدوده ، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التى يراد أن تكون له . وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين حتى العقائد التى بادت فى سبيل الدفاع عنها أمم برمتها ، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد ، ليفعل بعقائدنا مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا إليه ، والأمم الإسلامية اليوم محفوزة إليه بحكم التربية العصرية ، فوجب على القادرين منا على حمايته من الخطر العلمى أن يعملوا على شاكلتهم فى هذه السبيل .

* * *

ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمى ، أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصا عظيما ، إن لم يُغْفَل إغفالاً تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمرا طبيعيا ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبى كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم فى إثبات الحوادث ، وعَزْوها إلى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائرا ، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد ، وسيكون مضطرا بأن يعترف بأن محمدا ﷺ كان عبقريا من طراز خاص فاق به جميع العباقرة ، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته ، لأن العبقرية فى العلم لا تعنى ما تعنيه فى عرف العامة . هى فى العلم

ما يُلَقى فى رُوع العبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذًّا لا سابقة له ، يُتَّخَذُ مثالاً لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمى تقرِّب معنى النبوة إلى العقل ، وتسوغها فى العلم ، كما سنفصل ذلك تفصيلا فى الأعداد المقبلة .

إنّ ما تم على يد محمد ﷺ أمور لا يسلم بها العقل ، لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها ، ولا الغضّ من جلالتها بوجه من الوجوه . فقد تم على يده : (١) توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة . (٢) قضاؤه فى أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آماد طويلة . (٣) وإحلاله محلها دينا ينافى ما كانت تدين به من كل وجه . (٤) وإحداثه إصلاحا اجتماعيا قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة ، وإباحة متحكمة ، وغفلة متغلبة ، إلى إنسانية متلألئة ، وفضيلة متوثبة ، ويقظة لا تدع فرصة إلى الأغراض الشريفة ، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها ، حتى وصلت إلى زعامة البشرية فى سنين معدودة . (٥) وتأسيسه دستورا حكيما وحَمَلها على اتباعه ، فتأدّت إلى أكمل ما تتوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها ، وتكافل بين آحادها ، وتضافر بين جميع قواها المعنوية ، للوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم . (٦) ووضعه آساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر ، تقوم على دين واحد هو الدين الفطرى الأول ، وعلى شريعة واحدة تبنى على أصول الحق الطبيعى والعدل المطلق ، وتنشد غرضا واحدا هو الوصول إلى أقصى ما قدر للإنسان من كمال صورى ومعنوى معا .

هذه الأعمال كل واحد منها ترفع مُقِيم صَرْحها إلى درجة ممتازة من العبقرية تخلّد له اسما خالدا بين أسماء عظماء النوع البشرى ، فما ظَنّك لو تمت كلها على يد رجل واحد ؟

وليس هذا كل ما فى هذا الموضوع ، فإن العبقريات التى تم لها توحيد الأمم أو إيتاؤها بدين جديد أو بدستور إلخ ، إنما سلكت طريق السنة التدريجية للانتقالات الاجتماعية ، فأوجدت ما أوجدته من التجديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ، لا تقوى على البقاء إلا زمنا محدودا ، ريثما تتهيأ الأسباب للأمة إلى الدخول فى دور

انتقال جديد تمر به إلى حالة أرقى من التى كانت فيها ، ولكن الرسالة المحمدية لم تسلك طريق تلك السنة الطبيعية ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التى أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمُثل العليا التى ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها فى بيئات طهرتها أولا من جميع البقايا الأثرية ، فجاءت أبنيتها قائمة على أسس لا تتزعزع ، حافظة لجدتها وروائها ما بقى الدهر .

مثال ذلك : يحدثنا التاريخ عن عبقريات وحّدت بين قبائل كثيرة فجعلتها أمة ، ولكنها لم تجعلها أمة مثالية خالصة من جميع عيوب الجماعات البشرية ، فإنك تصادف فيها طبقات ذوات امتيازات مختلفة ، وطوائف متوزعة مرافق الأمة على قاعدة استبدادية تحكمية ، وتجد عامّتها هَمَلاً رَعَاعاً لا حق لهم فى الوجود إلا بقدر الخدم التى يؤدونها للخاصة ، فهم مستعبدون ومحرومون من أكثر الحقوق التى يتمتع بها من فوقهم من مُنتحلى حق الوصاية عليهم ، فالأمة المؤلفة على هذه الشاكلة تسمى فى العرف أمة ، ولكنها فى حاجة إلى تطورات متعاقبة ليخلص فيها الاجتماع من آفاته المنذرة بالفتن الداخلية .

أين هذا من المجتمع الذى دعا إليه الإسلام خالصاً من جميع هذه العيوب ، وقائماً على أكمل الأصول العمرانية ، فهو مجتمع متجانس التركيب ليس فيه طوائف مختارة ، ولا طبقات ممتازة ، ولا حوائل تمنع أى عقل عال ، أو فكر ناضج ، أو نظر ثاقب من إظهار نشاطه ، وإبراز مكنوناته لخدمة الجماعة ، ووصوله بجهوده الخاصة إلى أرفع مكانة ؟ فكم تولى مناصب الحكم ، وزعامة الدين ، ورياسة العلم ، وقيادة الجند ، وتدبير الثروة العامة ، رجال من أجناس مختلفة ، وألوان متباينة ، وطبقات شتى ، لم يمنع أحداً منهم أصله أو جنسه أو لونه أو فقره عن الوصول إلى المرتبة التى عينتها له مواهبه . هذا هو المجتمع المثالى الذى دعا إليه محمد ﷺ وأوجده بالفعل .

وقل مثل ذلك فى الدين الذى أتى به ، والدستور الذى أسسه ، والتمدن الذى أقامه ، والإصلاح الذى بثه ، والمجتمع الذى ألفه ، فقد جاء فى كل هذه الشئون بالمثل العليا نفسها ، لا بحالات ساذجة أو متوسطة تحتاج لأن ترقى وتتطور على مدى

الأزمان ، كما سنبين ذلك بالأدلة المحسوسة عند كلامنا عليها فى هذه السيرة . فهذه الأعمال منفردة أو مجتمعة لا يستطيع العلم أن يسلم بإمكان وجودها فى عهد من العهود السابقة ، ولا بإمكان اجتماع عبقرياتها جميعا فى رجل واحد ، فهذا العجز من العلم يكفينا فى إثبات نبوة محمد ﷺ عند كلامنا عن حقيقة النبوة والوحى ، وأدلة ذلك من العلم نفسه ، إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٥٨ هـ .

obeikandl.com